الشبيهان:
سيرة مزدوجة لمبارك وبن علي

كارم يحيى*

شرعتُ في كتابة هذه السلسلة من الحلقات «الشبيهان: سيرة مزدوجة،» التي أظنُّها نواةَ كتابٍ يحمل العنوان ذاته، فجرَ اليوم التالي لهروب الرئيس زين العابدين بن عليّ إلى خارج تونس، أيْ في ١٥ / ١ / ٢٠١١. وقد أغواني ما إخاله أوجهَ تشابهٍ بينه وبين الرئيس المصريّ حسني مبارك. ولمّا أتممتُ كتابةَ الحلقة الأولى ـ وهي بمثابة مقدّمةٍ حاولتُ فيها إيجازَ هذه الأوجه ـ لاحظتُ أنني تصرّفتُ وكأنّني غيرُ واثقٍ من إمكانيّة استكمال الحلقات. فسعيتُ إلى طرح عناوين التشابه كلّها دفعةً واحدةً.

* ـ كاتب وصحفيّ مصريّ. مؤلّف كتاب **حريّة على الهامش: في نقد أحوال الصحافة المصريّة.**

أرسلتُ الحلقةَ الأولى/المقدّمة في اليوم ذاته إلى الزميل خالد البلشي، رئيس تحرير موقع جريدة **البديل** الإلكترونيّ اليساريّ المحدود الزوّار لأنّه كان الفضاءَ شبهَ الوحيد المتاح أمامي للنشر. وفي الممارسة العمليّة اتّضح أنه لم يكن ممكنًا نشرُ «الشبيهان» في مطبوعةٍ تَصْدر من مصر في ظلّ عهد مبارك. هذا وكانت صحيفة **العربي**، الحزبيّة المعارضة، قد تفضّلتْ في الأشهر القليلة بنشر ما تيسّر من مقالاتٍ أخذتُ في كتابتها غيرَ عابئٍ بانعدام فرص النشر في الصحيفة «القوميّة» التي أعمل فيها (**الأهرام**)، أو في غيرها من صحفٍ خاصّةٍ يقال عنها زورًا إنّها «مستقلّة» وهي في الأصل صحافةُ رجال أعمالٍ يرتبطون بخيوطٍ ظاهرةٍ أو خفيّةٍ بأركان النظام.

وعلى أيّة حال، فقد تفضّلت **البديل** بنشر «الشبيهان» بعد مناقشة هاتفيّة مع رئيس تحريرها انتهت بأنْ أبدى استعدادَه (ضاحكًا) لأن نُمضي معًا بعضَ الوقت في الاعتقال أو السجن، وإنْ كان قد عرض النصّ على مستشار قانونيّ. وفيما كنتُ أقوم بالإعداد للحلقة الثانية، طالعتُ في الصحف والقنوات التليفزيونيّة هجومًا دعائيّاً كاسحًا يؤكّد أنّ مصر ليست تونس وأنّ مبارك ليس بن عليّ. والحقّ أنّ أحدًا لم يكن يتوقّع أن تلحقَ مصرُ بتونس بهذه السرعة، فتندلع ثورتُها بعد عشرة أيّام فقط؛ بل إنني لم أفكّر حينها في مَنْ ستتوافر لديه جرأةُ نشر النصّ في عهد مبارك بعد استكمال حلقاته. وفي تلك الأثناء تلقّيتُ أكثر من اتصال من أصدقاء أعزّاء يَحْمل قلقًا ونصحًا، يدعونني إلى التوقّف عن الكتابة والنشر. وأذكر بامتنانٍ اتصالين: أحدهما للصديق الزميل الأستاذ عبد العال الباقوري، وكيل نقابة الصحفيين المصريين ورئيس تحرير صحيفة **الأهالي** سابقًا؛ والثاني للمفكّر الدكتور نادر فرجاني، الذي اتصل بي للمرّة الأولى، وقد أشفق على شخصي من عواقب الاستمرار في «الشبيهان.»

ولا أخفي سرّاً عندما أقول إنّ قدرًا من الخوف تسرّب إلى القلب، فاتخذتُ احتياطاتٍ بعضُها يضحكني الآن؛ فقد وضعتُ رسالةً على هاتفي المحمول تفيد بأنه جرى اعتقالي، كي أستخدمَها في الوقت المناسب. ونقلتُ نسخةَ كتاب **صديقنا الجنرال زين العابدين بن عليّ** (الذي اتخذتُ منه منطلقًا لكتابة هذا اللون من السيرة المزدوجة) إلى صديقٍ لا صلةَ له بالسياسة أو الصحافة؛ أما النسخة المصوّرة من الكتاب، ومعها المادةُ الأرشيفيّةُ التي أخذتُ في التقاطها بخطّ اليد من دار الكتب المصريّة ومراكز المعلومات بالدور الصحفيّة في القاهرة، فقد كنتُ أحفظها كلّ ليلة بمطبخ البيت في أحد أدراج «التلاّجة،» ومعها فلاشةُ الكمبيوتر التي تختزن ذاكرةَ ما أكتب. بل أوصيتُ صديقي وأقربَ الزملاء في **الأهرام** الأستاذ علاء العطار خيرًا بنسخةٍ إلكترونيّةٍ من هذه الذاكرة، ومعها بعضُ الأمور الماليّة والمعيشيّة لزوجتي وابني الصغير في حال غيابي قسرًا.

ما حدث أنّني تغلّبتُ على كلّ المحاذير، وأطحتُ نصائحَ أحبابي، وواصلتُ العمل. وهكذا جرى نشرُ الحلقة الثانية على موقع **البديل** قبل يوم من اندلاع الثورة، أيْ في ٢٠١١/١/٢٤ . وقبلها تمامًا كنتُ منخرطًا في جمع مادة الحلقتين الثالثة والرابعة عن صعود مبارك وبن عليّ إلى مقعد الرئاسة وكذا السنوات الأولى في الحكم. وقد هالني ما اكتشفتُه من تلاعبٍ بالأرشيفات الوطنيّة في بلادي بشأن هذه الفترة من حياة الرئيس المصريّ، وبشأن ما يحْمله بعضُ الوقائع، كالحجم الحقيقيّ لمشاركته في حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتحطّم طائرة وزير الدفاع الفريق أحمد بدوي في ابريل ١٩٨١، من غموض واشتباهات في امتداد أيدٍ عابثةٍ مدرّبةٍ لإخفاء كتبٍ ومجلاتٍ وصفحات.

وبحلول يوم الخامس والعشرين من يناير، أدركتُ منذ اللحظة الأولى لخروج المظاهرات المطالبة برحيل مبارك وإسقاط النظامَ كم كانت تونس ملهِمةً للمصريين، حتى على مستوى الشعارات في الشوارع والميادين. لكنني اندفعتُ في الكتابة بعيدًا عن «الشبيهان»: فجاذبيّة الثورة في بلادي ومجرياتُها وإيقاعُها اللاهث كفيلةٌ بقلب كلّ مخططات العمل التي سبقتْ حدثًا في هذا الحجم. على أنّني كنتُ أتمنّى استكمال «الشبيهان» إلى النهاية، ولو كانت الكتابة قد فقدتْ لذّةَ المخاطرة بعدما لحق مبارك بمصير شبيهه.

والآن أودّ أن أُطلعكم على الحلقتين الأولى والثانية من «الشبيهان: سيرة مزدوجة.» وقد أضفتُ إلى العنوان الأصليّ اسمَي الرئيسين المصريّ والتونسيّ، علمًا أنّ الحلقتين نُشرتا على موقع **البديل** مع صورة الرجلين. ولعلّني أجد متعةً في أن أرى معكم النصّ مطبوعًا على ورق الآداب هذه المرّة.

لمحة عامّة

سيَحفظ التاريخُ هذه اللحظةَ الملهِمةَ عندما تحدّث الجنرال زين العابدين بن عليّ (٧٥ عامًا، منها ٢٣ في السلطة) بلهجة متوسّلٍ إلى الشعب التونسيّ المنتفض من أجل الحريّة والخبز والكرامة، في كلماتٍ أظنّها الأخيرة: «الآن، أنا فهمتكم.. أنا فهمتكم... لا رئاسة مدى الحياة...» وثمة إلهام خاصّ في هذا المشهد لدى المصريين الذين يذْكرون جنرالهم حسني مبارك (٨٢ عامًا، منها ٣٠ في السلطة) وهو يتوعّد بلهجةٍ لامباليةٍ بالبقاء إلى آخر نبض ونفس. والحقّ أنّه لا يَجْمع بين الجنرالين مجرّدُ خلفيّة عسكريّة وولع بالتصابي، كما يلوح في الشعر الأسود الفاحم بفعل الصباغة رغم تقدّم العمر، بل يَجْمع بينهما الكثير أيضًا. وخلال الأيام القليلة الماضية انشغلتُ بإعادة قراءة ترجمة كتاب الصحفييْن الفرنسييْن نيكولا بو وجان بيير توكوا، **صديقنا الجنرال زين العابدين بن عليّ**. ومع كلّ صفحة كانت تنتابني رغبةٌ قويّة، فأبحث عبثًا عن سيرةٍ مماثلةٍ قد يكون كَتَبَها أمريكيّون أحرار عن صديقهم الجنرال حسني مبارك. وإلى أن

تظهر مثلُ هذه السيرة، فإنّ لدينا قدرًا لا بأس به من المعلومات، يَسْمح بالمقارنة بين الجنرالَيْن مقارنةً أعمقَ ممّا تُفصح عنه كلماتُهما الدالّةُ السابقةُ وصبغةُ الشعر الداكنة.

ولفتح شهيّة القارئ فإنّي سأمرّ سريعًا بعناوين هذا التشابه من قبيل: النشأة الاجتماعيّة المتواضعة، وسنوات الطفولة والدراسة الغامضة، وفقر التكوين الثقافيّ والسياسيّ، والمحطّات الملتبسة من المؤسّسة العسكريّة، إلى الصعود على سلّم السلطة ولعبِ دور «رجل الظلّ» في السنوات الأخيرة من حكْم رئيس سابق، وتسلّم الرئاسة في سياق أزمة حكم وتهديد الأصوليين الإسلاميين وقلقِ القوى الغربيّة ثم مرحلة الانفتاح والوعد بالديموقراطيّة ونظافة اليد في السنوات الأولى والتعهّد بأنْ لا مجال لرئاسةٍ مدى الحياة أو بالبقاء فترةً واحدةً وبعدها النكوص، ودولة الحزب الحاكم، والجمع بين رئاسة الحزب والدولة والقوات المسلّحة وغيرها من الرئاسات والسلطات والصلاحيّات، والسجلّ الرهيب في الاعتقال والتعذيب وانتهاك حقوق الإنسان، وقتل السياسة واصطناع الأحزاب الديكوريّة «المعارضة،» وشراء المثقفين وإفسادهم، وادّعاء رعاية الحريّات، وبناء صورة زائفة للزعيم الأوحد بواسطة أتباع طيّعين، والترويج لـ «معجزة اقتصاديّة» ومعدّلات نموّ مرتفعة وسوقٍ واعدةٍ للاستثمار والسياحة فيما تتزايد معاناةُ الفقراء والطبقة الوسطى وتستفحل البطالة، والتحالف مع طبقةٍ من رجال الأعمال تغذّيها ليبراليّةٌ اقتصاديّةٌ سوقيّةٌ منفلتةٌ لا تواكبها ليبراليّةٌ سياسيّة، وتشكُّل بطانةٍ نهمةٍ متوحّشةٍ حول الرئيس تحوّلتْ إلى مافيا، ونموّ نظام محْكم للعمولات والرشاوى، والنفوذ الواسع للزوجة والأسرة في السياسة والاقتصاد، وتسويق صورة ذاتيّة إلى الغرب بوصف النظام القمعيّ الفاسد حائلاً دون وصول الإسلاميين إلى السلطة، ونسج علاقات علنيّة وخفيّة مع العدوّ الإسرائيليّ وأداء خدمات لصالحه

وأظنّ أن إعادةَ قراءة كتاب **صديقنا الجنرال زين العابدين** بعيون مصريّة الآن تفتح آفاقًا لنقاشٍ خلّاقٍ حول شبيهين، وإنْ كان ذلك لا ينفي وجودَ فروق بينهما. والسيرة المزدوجة التي سنبدأ في روايتها، مستلهمين ذلك الكتابَ، تكشف انطلاقَ رحلتهما إلى السلطة اعتبارًا من السبعينيّات، لكنها تتضمّن مفارقاتٍ لافتة. فعلى سبيل المثال لاحظنا أنّهما تبادلا دورَي المعلّم والتلميذ: فتشبّثَ زينُ العابدين برئاسة الحزب الحاكم

اتّخذتُ احتياطات بعضُها يضحكني الآن؛ فقد وضعتُ رسالةً على هاتفي المحمول تفيد بأنه جرى اعتقالي، كي أستخدمَها في الوقت المناسب.

(الواحد فعليًا) ورئاسة الدولة رغم المطالب الإصلاحيّة في بداية عهده بالفصل بين الاثنين، سائرًا في ذلك على نهج مبارك الذي كان قد تولّى السلطة في مصر قبله بنحو ستّ سنوات؛ لكنّ مبارك عام ٢٠٠٥ قرّر إجراءَ «انتخابات» رئاسيّة مقيّدة ومزوّرة بدلاً من الاستفتاءات الرئاسيّة المزوّرة، مقلّدًا في ذلك «المعلّم» بن عليّ عام ١٩٩٩ بتعديله المادة ٧٦. أما في النتائج فقد أدمن الجنرالان نِسبًا تقارب التسعة والتسعين في المائة في مرحلة الاستفتاءات المزوّرة، ثم انتقلا مع مرحلة الانتخابات المقيّدة المزوّرة (بعدما ضمِنا انتقاءَ المرشّحين المنافسين واحتكارَ الإعلام) إلى اختلاق نِسب هائلة لكنها أقلُّ ممّا سبق: فاختارَ جنرالُ تونس لنفسه نسبةً تقارب ٩٨ في المائة في انتخابات ٢٠٠٩ ، في حين افتتح جنرالُ مصر لعبته الجديدة باختيار نسبة ٨٨,٦ في المائة عام ٢٠٠٥!

الجنرالان شبيهان، وإنْ كانت هناك اختلافات، إذن. من ذلك أنّ زين العابدين تورّط بشكل مباشر قبل تسلّمه الرئاسة في قمع احتجاجات الخبز في تونس ١٩٧٨ بالرصاص الحيّ؛ في حين لم يتورّطْ جنرالُ مصر بصورةٍ مباشرةٍ مماثلة، وإنْ كان هناك إلى جوار سلفه السادات في موقع نائب الرئيس حين قَمَعَ بالرصاص الحيّ أيضًا الانتفاضة الشعبيّة في مصر في يناير ١٩٧٧، أيْ قبل الانتفاضة التونسيّة بعام واحد. إلا أنّ مبارك سيعود لاحقًا، وبنفسه، إلى استخدام الرصاص الحيّ لقمع انتفاضة مدينة المحلّة في أبريل ٢٠٠٨.

سنوات الطفولة والدراسة

«اختفت الآثارُ وصمت الشهودُ. وتغطّي مظلّةُ رعايةٍ واسعة كلَّ مَن يمتّ إلى مسيرة زين العابدين بصلة. حتى وثائقه المدرسيّة في ثانويّة سوسة تبخّرتْ بعد أيام من ٧ نوفمبر ١٩٨٧ [تاريخ انقلابه الأبيض على سلفه الحبيب بورقيبة].»[1] بهذه العبارة المفتاح قدّم بو وتوكو تفسيرًا لمحدوديّة المعلومات المتوافرة عن سيرة بن عليّ في طفولته وسنوات دراسته حتى تأهّله للحياة العمليّة ضابطًا عام ١٩٥٦. وواقع الحال أنّ شحّ المعلومات نفسه عن مرحلةٍ كهذه سيواجه أيَّ محاولة في المستقبل لكتابة سيرة غير دعائيّة لمبارك.[2] لكنّ هذا لا يمنع من النظر في كيفيّة تعامل سِيَرهما الرسميّة وشبه الرسميّة مع هذه السنوات البعيدة ومواضع التشابه والاختلاف بين الرجلين

١ ـ نيكولا بو وجان بيير توكوا، **صديقنا الجنرال زيد العابدين بن عليّ: وجه المعجزة التونسيّة الحقيقيّ**، ترجمة زياد منى (دمشق دار قدمس للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٥)، ص ٢٨ و٢٩

٢ ـ تقتضي كتابةُ هذه السيرة بالأصل جمعَ معلوماتٍ في حريّة من شخصيّاتٍ عاصرتْ مبارك بدءًا من قريته كفر المصيلحة بالمنوفيّة، وهو أمر لا يرى الكاتبُ إمكانيّة تحقيقه قبل انتهاء عهده

لم يتورّط مبارك، كبن علي، بصورةٍ مباشرةٍ في القمع قبل تسلّمه السلطة، لكنّه كان إلى جوار سلفه (السادات) حين قمع انتفاضة يناير ٧٧

ولحسن الحظّ فإنّ السفارة التونسيّة في القاهرة كانت قد وزّعتْ عام ١٩٨٨ على دُور الصحف المصريّة سيرةً رسميّةً موجزة عن زين العابدين بعد أشهرٍ معدودةٍ من تولّيه السلطة، وَرَدَ فيها نزرٌ يسيرٌ عن سنوات الطفولة والصبا والدراسة [١] ولقد حاولتُ بعد أيّامٍ معدودةٍ من فراره إلى السعوديّة (مساء ٢٠١١/١/١٤) الحصولَ على سيرة رسميّة أحدث وأدسم من السفارة التونسيّة، لكنّني لم أجد أيّ تعاون.[٢] ولحسن الحظّ أيضًا أنّ هناك سيرةً لمبارك على موقع هيئة الاستعلامات المصريّة، لكنها تكتفي في أربعة أسطر مقتضبة بالإشارة إلى تاريخ الميلاد ومكانه والمؤهّلات الدراسيّة. وسألتُ إنْ كانت الهيئة قد أصدرتْ كتابًا عن سيرته يتضمّن معلومات ضافية عن سنوات الطفولة والصبا والدراسة، فنفت. أما الكتاب التذكاريّ المصوّر الذي أصدرته مؤسّسةُ الأهرام بمناسبة بدء ولايته الرابعة عام ١٩٩٩، فخصّص أربعَ صفحات فقط (من إجماليّ ٣٠٠ صفحة) لصور تتعلّق بمرحلة ما قبل تولّيه قيادة سلاح الطيران في إبريل عام ١٩٧٢؛ كما أنّ كاتب مقدّمة هذا الكتاب الملوّن اللامع الفخم الأستاذ إبراهيم نافع مرّ سريعًا بتلك المرحلة.[٣]

اللافت أنّ سير رؤساء الجمهوريّة المصريّة السابقين انطوت على معلوماتٍ وصفحاتٍ لا بأس بها بشأن حياتهم في الطفولة والصبا والدراسة. وأكتفي بالإشارة إلى الكتاب الذي صدر بقلم أنور السادات نفسه إبّان حكمه، وتضمّن ١٧ صفحة كاملة عن مرحلة ما قبل تخرّجه من الكليّة الحربيّة،[٤] وبقدر من الانفتاح لم نعهدْه من خليفته مبارك. فقد قال السادات مثلاً إنه «عمل بالأرض الزراعيّة.. وكان يأخذ البهائمَ إلى الترعة ويحشو جلبابه الفضفاض في الصباح بالجبن الناشف المخلوط بكسر الخبز ويغترف من القطن ويضعه في عبّه ثم يهرع إلى بائعة بلح ويعطيها إيّاه فتعطيه ما يقابله من البلح.» وروى أيضًا أنه كان يعيش تحت خطّ الفقر وهو في مرحلة التعليم الثانويّ، وأنه نزل مرة إلى الحارة التي كان

---

١ ـ السيرة منسوبة في الأصل إلى وزارة الإعلام التونسيّة

٢ ـ اتصلتُ هاتفياً بالسفارة ظهر يوم الاثنين ٢٠١١/١/١٧، فأجابتني موظّفةٌ بأنّ الملحق الإعلاميّ مشغول حالياً بالتحدّث على الهاتف، ونصحتني بمعاودة الاتصال بعد عشر دقائق فلما فعلتُ ذلك اعتذرتْ وقالت إنّ الجميع مشغولون بالإعداد للقمّة الاقتصاديّة العربيّة في شرم الشيخ وقد جال في الخاطر أن ألجأ إلى الصحفيّة التونسيّة ألفة سلامي، مدير تحرير جريدة **العالم اليوم**، الاقتصاديّة الصادرة من القاهرة، لأنها كانت وفق روايات شهودٍ عدولٍ عديدين المسؤولةَ عن توزيع إعلانات الدعاية للجنرال زين العابدين على الصحف المصريّة لكنني تراجعتُ بعدما ظهرتْ على برنامج «العاشرة مساء» بقناة دريم الفضائيّة في ٢٠١١/١/١٥ وهي تهاجم الجنرالَ بقسوة

٣ ـ **مبارك: الرجل والإنسان والمسيرة (سجلّ صور)** (القاهرة. مؤسسة الأهرام، ط ١ و٢، أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٩)

٤ ـ أنور السادات، **البحث عن الذات: قصة حياتي** (القاهرة المكتب المصريّ الحديث، ١٩٧٨)، ص ١١ ـ ٢٨

لا يَجْمع بين مبارك وبن علي مجردُ خلفيّة عسكريّة وولع بالتصابي، كما يُلوح في الشعر الأسود الفاحم بفعل الصباغة رغم تقدّم العمر، بل يَجْمع بينهما الكثيرُ أيضًا.

يسكنها بالقاهرة ليشتري علبة كبريت فسخر منه زبائنُ البقّال عندما قال له: «عايز كسفريت.»[1] والحقيقة أنْ لا سيرة مماثلة أمامي عن الرئيس التونسيّ الراحل الحبيب بورقيبة، لكنْ ثمة ما يستحقّ ملاحظة عابرة هنا. فالتناول المقتضب الحذر لسنوات الطفولة والصبا والدراسة في سيرتيْ مبارك وزين العابدين، وكلاهما من أصول اجتماعيّة ريفيّة بسيطة (وفي ذلك ما لا يشين مطلقًا)، قد يعود إلى المسافة التي تفصلنا عن زمن الاستقلال والثورة في عقد الخمسينيّات في مصر وتونس، وبما يحمله من قيم المساواة الاجتماعيّة والانحياز إلى الفقراء وتقدير الريف، وإنْ كنّا لا نستبعد تمامًا أثر التكوين الثقافيّ والنفسيّ المحدود للجنرالين مقارنةً بالرؤساء السابقين.

وُلد الجنرالان قبل تسلّم النخب الوطنيّة السلطةَ في بلديْهما عام ١٩٥٧ (تونس) وعام ١٩٥٢ (مصر): الأول وُلد عام ١٩٣٦، والثاني عام ١٩٢٨. وكلاهما أيضًا كان مسقطُ رأسه وسنواتُ دراسته حتى إتمام المرحلة الثانويّة في منطقةٍ غير حضريّة أو ما أشبه: الأول مسقط رأسه قرية حمام سوسة ودرس في المعهد الثانويّ بسوسة؛ والثاني في قرية كفر المصيلحة بمحافظة المنوفيّة، ودرس في مدرسة «المساعي المشكورة» الثانويّة في شبين الكوم التي كان يذهب إليها من قريته سيرًا على الأقدام[2]... وذلك على عكس سابقيهم من الرؤساء التوانسة والمصريين الذين وُلدوا أو عاشوا على الأقلّ مرحلة التعليم الثانويّ في الحضر بالمدن الكبرى.[3]

لن يكون بإمكان التوانسة والمصريين على السواء أن يَعْلموا حقيقة المستوى الدراسيّ لجنراليهم، من التعليم الابتدائيّ إلى نهاية التعليم العسكريّ مرورًا بالثانويّ. وتبدو الصحفُ والكتبُ في البلدين عاجزةً عن الحصول على أيّة شهادةٍ تعليميّةٍ لكليهما، وعلى نشر الدرجات لتوضيح ترتيبهما بين زملاء الدراسة. لكنْ ثمة إيحاءاتٌ في سيرتهما تؤكّد اهتمامًا ما بالتعليم. ففي الحالة التونسيّة تقول السيرة التي وزّعتها السفارةُ التونسيّةُ في القاهرة عام ١٩٨٨، مع محاولة إضافيّة لاصطناع تاريخ سياسيّ مبكّر لزين العابدين: «كان نداءُ الوطن قد شقّ طريقه إلى وجدانه ومن غير أن يتهاون بواجباته الدراسيّة.» أما في الحالة المصريّة فنعثر على إشارةٍ وحيدةٍ في كتابٍ صدر عام ١٩٩٣ بمناسبة بدء الولاية الثالثة لمبارك، وإنْ نفت عنه أيَّ انشغال بالسياسة رغم ما نعرفه من فوران وطنيّ انخرط فيه مجايلوه في التعليم الثانويّ خلال الأربعينيّات، وتحديدًا سنوات ما بعد الحرب العالميّة الثانية، وعلى نحو خاصّ عام ١٩٤٦ وهو عام «اللجنة العليا للطلبة والعمّال» ومظاهراتها وإضراباتها. وقد ورد في هذه الإشارة ما يأتي: «كان حسني مبارك بطبعه دقيقًا يعرف حسابَ الوقت، فلم يضيّعْ وقته في غير تحصيل العلم. وفي زمن الاضطرابات الطلابيّة السياسيّة والمظاهرات التي تجتاح البلادَ في هذه الفترة كان بعضُ زملائه يلجأون إلى الإضراب عن الدراسة، فكان ينصحهم بالانتظام فيها لأنّ الاضطرابات صراعاتٌ حزبيّة لا صلة لها بالدراسة و[لأنّ] الواحد منّا لا بدّ أن يكون حريصًا على مستقبله.»[4] وفي هذا القول ما يختلف تمامًا عن سيرة سابقيه من رؤساء الجمهوريّة المصريّة، وخصوصًا عبد الناصر.[5] لكنْ ثمة إشارةٌ مناقضة، وإنْ كانت ضعيفة المصداقيّة ولا يتطرّق إليها

١ ـ أنظرْ على وجه خاصّ الصفحات ١٢ و١٤ و١٩ من المرجع السابق.

٣ ـ في إحدى المرات النادرة تحدّث مبارك عن أبيه «الموظّف العاديّ» الذي يمتلك أربعة أفدنة، وعن حياته بين الفلاحين وإحساسه بكلّ ما يعانيه أيُّ قرويّ بسيط، وذلك في حديث أجراه معه في مايو ١٩٧٦ عبد الستار الطويلة فور تولّيه منصبَ نائب رئيس الجمهوريّة. وقد أعادت مجلة **صباح الخير** المصريّة نشره في عدد ١٥ أكتوبر ١٩٨١

٣ ـ وُلد عبد الناصر بحيّ باكوس الشعبيّ بالإسكندريّة في عام ١٩١٨. تنقّل خلال مرحلة التعليم الثانويّ بين مدرسة ضاحية حلوان الثانويّة القريبة من العاصمة، فمدرسة رأس التين بالإسكندريّة عام ١٩٣١، ثم مدرسة النهضة الثانويّة بحيّ الضاهر في القاهرة عام ١٩٣٣ حتى تخرّجه فيها. ووُلد أنور السادات في قرية ميت أبو الكوم بمركز تلا منوفيّة في عام ١٩١٨، والتحق بالعديد من المدارس الثانويّة بالعاصمة القاهرة قبل أن يدخل الكليّة الحربيّة عام ١٩٣٦. أما محمد نجيب، أوّل رئيس للجمهوريّة المصريّة، فقد وُلد عام ١٩٠١، لكنْ ثمة خلافٌ في الروايات بين مكان ميلاده في ساقية معلا بالخرطوم أو في قرية النحارية بمركز كفر الزيّات بمحافظة الغربية، والتحق بكليّة غردون في الخرطوم سنة ١٩١٣. أما الحبيب بورقيبة فقد وُلد في حيّ الطرابلسية بمدينة المنستير الساحليّة الحضريّة، وتلقّى تعليمه بتونس العاصمة في معهدي الصادقي وكارنو، قبل أن يتّجه بعد حصوله على البكالوريا سنة ١٩٢٤ إلى باريس ليحصل على شهادة كليّة الحقوق والعلوم السياسيّة عام ١٩٢٧

٤ ـ أنور محمد، **اسمي حسني مبارك** (القاهرة. دار إم أيه للنشر والتوزيع، ١٩٩٣)، ص ١٦ و١٧.

٥ ـ المعروف أنّ عبد الناصر شارك في المظاهرات الطلابيّة منذ عام ١٩٣٠. وروى في خطاباته السياسيّة لاحقًا ذكرياته عن هذه المشاركة، بما في ذلك تعرّضه لضرب عصيّ الشرطة وإصابته بجرح في رأسه واحتجازه بالقسم وقيادته لمظاهرةٍ أخرى في نوفمبر ١٩٣٥ وإصابته في جبينه بطلق ناريّ. كما أنّ مدرسة النهضة كانت قد قررت فصله إثر معاهدة ١٩٣٦. والمعروف أيضًا أنّ عبد الناصر كان على صلة بالعديد من التيّارات السياسيّة في وقت مبكر، وكان من بينها «مصر الفتاة» و«الإخوان المسلمين » وللمزيد، يمكن الرجوع إلى سيرته الذاتيّة، وهي من إعداد هدى عبد الناصر، وذلك على الموقع الإلكترونيّ الخاصّ بهذه السيرة.

سيَر الجنرالين تخلو من رصد اهتمام أيّ منهما بقراءة الكتب العامّة، وهو ما يختلف مع حالة عبد الناصر

العديدُ من المصادر الرسميّة وشبه الرسميّة، وقد وردتْ في كتابٍ من دون تاريخ، وتحاول بفجاجةٍ اصطناعَ ماضٍ سياسيٍّ لمبارك، فتنسب إلى أحد زملائه في المدرسة قوله. «إنّ الرئيس مبارك كانت له اهتماماتٌ سياسيّةٌ مبكّرة جداً، حيث كان عضوًا باللجنة السياسيّة بالمدرسة. وكان له اهتمامٌ شديدٌ بالأحداث التي تمرّ بالوطن. ورغم أنّ عمره لم يكن يتعدّى الرابعة عشرة إلا أنّه كان صمام الأمان في اللجنة... لهذا لم تكن مفاجأةً لرفاقه ومعارفه ومحبّيه أن يتولّى المناصب التالية بعد تخرجه من الكليّة الحربيّة...» وعلى الأقلّ، فإنّ وجود «لجنة سياسيّة» في مدرسةٍ ثانويّة، وبهذه التسمية، أمر يثير الشكوك![١]

الرواية الرسميّة لزين العابدين اصطنَعتْ له، هي الأخرى، ماضيًا سياسيًا وطنياً قبل أن يتولّى السلطة. فهو «في سنّ السادسة عشرة انخرط في صفوف الشبيبه الدستوريّة، وقام بربط الاتصال بين هياكل الحزب وبين رجال المقاومة المسلّحة، فكان السجنُ والرفتُ من كلّ المعاهد التونسيّة في عام ١٩٥٢.»[٢] لكنّ كتاب **صديقنا الجنرال** يدحض هذه الصورة المصطنعة حين يستشهد بسيرةٍ وصفها بأنها «مجامِلة» كتبها عامَ ١٩٩١ صحفيٌّ «ذو صلةٍ طيّبةٍ بالنظام التونسيّ» يُدعى سلامة حسني، وقال فيها: «لم نتمكّن من إيجاد أيّ شهادةٍ جدّيّةٍ تؤكّد أو تنفي انخراط بن عليّ خلال الفترة من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٦ في عملٍ مناهضٍ للاستعمار... ذلك أمر عاديّ بما أنّ زين العابدين كان في تلك الفترة قاصرًا... ولأنّه لم تسجِّلْ سجلاّتُ الشرطة وجودَ أيّ قاصر لديها.»[٣] بل يشكّك كتابُ **صديقنا الجنرال** في حصوله على شهادة إتمام الثانويّة العامّة، ويشير الى اللقب الطريف الذي أطلقته عليه مجلةُ **لكسبرس** الفرنسيّة («بكالوريا ناقص ٣») إذ يقول إنّه ترك التعليمَ الثانويّ قبل البكالوريا بثلاث سنوات.[٤]

وعلى أيّة حال، فإنّ السير الرسميّة أو شبه الرسميّة المتوافرة لدينا عن الجنرالين تخلو من رصد اهتمام أيٍّ منهما بقراءة الكتب العامّة خلال سنوات الدراسة الثانويّة والتعليم العسكريّ وهو ما يختلف على نحو خاصّ مع حالة عبد الناصر.[٥] وإنّ

١ ـ عادل حافظ، **مبارك: التاريخ والتحدّي** (القاهرة المركز الدوليّ للنشر والإعلام، د ت)، ص ٢٠

٢ ـ السيرة الرسميّة لوزراة الإعلام التونسيّة، ١٩٨٨

٣ ـ بو وتوكوا، ص ٣٤.

٤ ـ المرجع السابق، ص ٣٣

٥ ـ على سبيل المثال تورد سيرةُ عبد الناصر على الموقع الإلكترونيّ المشار إليه سابقًا قائمةً من ٣٦ كتابًا قرأها خلال المرحلة الثانويّة في التاريخ والتراجم وغيرها، وقائمةً أخرى باثنين وستين كتابًا قرأها خلال دراسته بالكليّة الحربيّة في التاريخ والتراجم والاستراتيجيّة والعلوم العسكريّة

كنتُ لا أدري شأنَ بورقيبة في هذا الصدد.

ثمة وجهُ شبهٍ آخر في كتابة السيرة الرسميّة للجنرالين. فمع اندفاع نظاميْهما في ملاحقة الإسلاميين، ولو باللجوء إلى الاعتقال والتعذيب والقتل، جرت «إعادةُ اكتشاف» جذور إسلاميّة لنسبهما العائليّ وطفولتهما. وفي حين خلت السيرةُ الموجزةُ التي وزّعتها السفارةُ التونسيّة في القاهرة عام ١٩٨٨ من أيّة إشارة إلى ذلك، فإنّ الصحف الصديقة لبن عليّ في بلاده وفي فرنسا أشاعت لاحقًا عنه أنّه وُلد في زاوية سيدي مخلوف الشفيع، لما للزاوية من دلالةٍ مقدّسةٍ عند بسطاء التونسيين.[١] أما في الحالة المصريّة، فبعد أن خلت السيرُ الأولى المتوافرة خلال الثمانينيّات من إشارةٍ لافتةٍ إلى جذور مبارك الإسلاميّة، تعود سيرُ العقد التالي لتتحدّث عن دور والده في دفعه إلى المواظبة على أداء الصلوات في أوقاتها وشرح الأحاديث الشريفة له، ولتتحدّث كذلك عن حفظ مبارك للقرآن خلال دراسته الابتدائيّة. بل تذهب سيرُ التسعينيّات الى أنّ جذور العائلة تمتدّ إلى سيدي مبارك، صاحبِ الضريح المشهور بـ «زاوية البحر» في محافظة البحيرة، وهو من مريدي العارف بالله سيدي أحمد البدوي.[٢]

هناك وجهُ شبه آخر لا أخير، وهو أنّ سِير الجنرالين تفيد بأنّ طموح الأب أو العائلة كان ينحصر في توجيه الولدين إلى دراسةٍ تُعدّهما لكي يكونا معلّمين، إلا أنّهما أصرّا على الالتحاق بالدراسة العسكريّة. فقد ورد في **صديقنا الجنرال** أنّ الأسرة كانت تحلم بأن ترى زين العابدين «معلّمًا»[٣]؛ وتقول إحدى السير إنّ مبارك «صمّم على دخول الكليّة الحربيّة رغم أنّ والده أراد أن يدخل كليّة المعلّمين ليصبح مدرّسًا في مدرسة القرية.»[٤]

لن يكون بإمكان التوانسة والمصريين على السواء أن يَعْلموا حقيقة المستوى الدراسيّ لجنراليهم، وتبدو الصحفُ والكتبُ في البلدين عاجزةً عن الحصول على أيّة شهادةٍ تعليميّةٍ لكليهما.

تختلفُ نوعًا ما طبيعةُ التعليم العسكريّ الذي حصل عليه الجنرلان قبْل انخراطهما في الخدمة العسكريّة. فزين العابدين أرسله حزبُ بورقيبة إلى فرنسا ضمن دفعةٍ أولى، كنواة للقوات المسلّحة الوطنيّة التونسيّة، فالتحق بمدرسة سان سير العسكريّة، وحصل على دبلومات من مدرسة المدفعيّة بشالون سورمان، قبل أن يعود عام ١٩٥٨ ويبدأ حياته المهنيّة ضابطًا شابًا في قيادة الأركان بعد عامٍ واحدٍ من إعلان الجمهوريّة وعامين من الاستقلال.[٥] أمّا مباركٌ فالتحق بالكليّة الحربيّة عام ١٩٤٧ وتخرّج بعد أقلّ من عامين، ثم اجتاز اختبارًا والتحق بالكليّة الجويّة المصريّة وتخرّج في مارس ١٩٥٠ طيّارًا مقاتلاً،[٦] حين كان الإقبالُ على الكليّة الجويّة محدودًا نظرًا إلى خشية أولياء الأمور على حياة أبنائهم من حوادث الطيران.[٧] ولقد تخرّج مبارك وعمل ضابطًا في سلاحَي المشاة والطيران في ذروة نشاط حركة الضبّاط الأحرار، ومن دون ما يفيد بأنه كان على أدنى صلةٍ بها.

ولعلّ ما يَجمع أيضًا بين الجنرالين في مرحلة الطفولة والصبا والدراسة أنّ أيًا من السير المتوافرة عنهما لا يكشف عن ترتيبهما بين دفعتيهما في الكليّات العسكريّة، بل ثمة شبهُ يقين أنّهما لم يكونا بين أوائل الدفعات. وتقدّم الصورُ الصادرةُ عن مؤسّسة الأهرام لقطةً غيرَ مؤرّخة تعود الى أيّام مبارك بالكليّة الحربيّة، ويَظهر فيها بملابس رياضيّة ضمن أعضاء فريق الهوكي بالكليّة وقد احتلّ أقصى يمين الصف الثاني والأخير![٨]

وإلى حلقةٍ ثالثة من سيرة الجنرالَيْن!

القاهرة

---

١ ـ بو وتوكوا، ص ٣٢ و٣٣

٢ ـ أنور محمد، ص ١٥ و١٦؛ و**مبارك: الرجل والإنسان والمسيرة (سجلّ صور)**، ص ٩

٣ ـ بو وتوكوا، ص ٣٣

٤ ـ أنور محمد، ص ١٧

٥ ـ السيرة الرسمية الموجزة لوزارة الإعلام التونسيّة

٦ ـ وفق العديد من السير الرسميّة وشبه الرسميّة

٧ ـ أنور محمد، ص ١٧.

٨ ـ **مبارك: الرجل والإنسان والمسيرة**، ص ١٤